بين عبد العزيز وبين أشراف مكة

عهد الشريف أحمد بن سعيد :

تولى حكم مكة ، في أوائل عهد عبد العزيز ، الشريف أحمد بن سعيد ، وكان مبغضاً للترك ، وقد اتبع نحو الدرعية سياسة مودّة وأخوّة ، فأذن لأهلها بالحج ، وكانوا ممنوعين منه ، وطلب عالماً من أهل الدرعية يبين لأهل مكة حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ولكن عهد هذا الشريف ، لسوء الحظ ، لم يطل ، ولو انه استمر لتغير وجه التاريخ ، ولما حدثت مأساة الدرعيـة على أيدي محمد علي ورجاله ، فقد كان الدافع اليها سوء التفاهم بين مكة والدرعية .

في العام ١١٨٣ هـ . أذن شريف مكة أحمد بن سعيد لأهل الدرعية وأنصار الدعوة عموماً بالقدوم إلى مكة المكرمة للحج ، الذي كان ممنوعاً عنهم بحجة أن الوهابية .. مذهب جديد مخالف للسنّة وما عليه سائر المسلمين ..

أبطل الشريف هذه الدعوة الكاذبة ، واستقبل بنفسه جماعة من أهل العارض جاؤوا للحج ورحّب بهم وأكرمهم ، وعادوا إلى بلدانهم دون أن يلقوا أية مشقة .

لماذا خالف الشريف أحمد أسلافه واتبع سياسة حسنة نحو الدرعية ، كان الإذن بالحج إحدى علاماتها ؟

يقول ابن غنام ، في أخبار سنة ١١٨٣ : (وفيها غزا للمسلمين ركب ، فصادف الشريف منصور ، فأخذ مع ركب معه ، وأُتي به مأسوراً ، فمنّ عبد العزيز

عليه بإطلاقه دون الفدا ، فرجع بعـــد ذلك برخصة من شريف مكة في الحج لذوي الهدى ..) .

ويتفق رأي مانجان مع رأي ابن غنام ، إذ يقول : (أسر عبد العزيز فتى من أشراف مكة يدعى منصور ، فأطلق حريته وأكرمه ، فعـــاد إلى مكة يلهج بالثناء على عبد العزيز ، وطلب من الشريف أحمد بن سعيد أن يأذن لأهل نجد للحج تقديراً لحسن صنيعه معه ، ففعل) .

وفي اعتقادنا ان سياسة الشريف أحمـد لم تتغير بسبب هذا الحادث وإكراماً للشريف منصور ، وإنمـــا تغيرت بسبب ظروف خاصة كانت تحيط بالشريف المذكور ، فقد جاء ، من قبل ، إلى مكة موظف تركي معروف ، هو (محمد بك الملقب بأبي الذهب) ، فعزل الشريف أحمد عن الشرافة وأجلاه عن مكة وجعل مكانه (حسين بركات) ، ولكن الشريف أحمـد قتل الشريف حسين واستعاد إمارة مكة ، فكره الأتراك ، وأحبّ الوهابيين لأنهم مثـله يكرهون الترك ، وكان إطلاق الشريف منصور فرصة ظهرت فيها عواطف الشريف المكنونة او المكبوتة .

قرر هذا الشريف أن يعيش بسلام ومودة مع الدرعية ، بل أحب أن يشرك قومه في التفتح لدعوة الشيخ ، فكتب اليه كتاباً رقيقاً يطلب فيه إرسال واحد من علمـــاء نجد إلى مكة ليبين لعلمائها الأمر الذي يدعو اليه ، فاستجاب الشيخ لطلبه وأرسل إلى مكة ، بمشورة عبـد العزيز وموافقته ، عالماً كبيراً هو الشيخ عبد العزيز الحصين .

رسالة الشيخ الى الشريف :

ويقول ابن غنام ان الشيخ الحصين حمل معه إلى شريف مكة رسالة من الشيخ وعبد العزيز ، ولكن الرسالة تبـــدو صادرة عن رجل واحد ، هو الشيخ ، وهذا نصُّها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(المعروض لديك ، أدام الله فضل نعمته عليك ، حضرة الشريف أحمد ابن

الشريف سعيد ، أعزّه الله في الدارين ، وأعزّ به دين جده سيد الثقلين .

إن الكتاب لما وصل إلى الخادم ، وتأمّل مـا فيه من الكلام الحسن ، رفع يديه بالدعاء إلى الله بتأييد الشريف ، لما كان قصده نصر الشريعة المحمـدية ومَن تبعها ، وعداوة مَن خرج عنها ، وهذا هو الواجب على ولاة الامور.. ولما طلبتم من ناحيتنا طالب علـم ، امتثلنا للأمر ، وهو واصل اليكم ، ويحضر في المجلس الشريف ، أعزه الله تعالى، هو وعلماء مكة ، فإن اجتمعوا ، فالحمد لله على ذلك، وإن اختلفوا أخذ الشريف كتبهم وكتب الحنابلة ، والواجب على كل منا ومنهم أن يقصد بعمله وجه الله ونصر رسوله ، كما قال تعـالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ إلى قوله : ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه ﴾ ، فإذا كان الله سبحانه قـد أخذ الميثاق على الأنبياء ان ادركوا محمداً ﷺ ، على الإيمان به ونصرته ، فكيف بنا يا أمته ؟ فلا بد من الإيمان به ولا بد من نصرته ، ولا يكفي أحدهما عن الآخر، وأحق النـاس بذلك وأولاهم أهل البيت الذين بعثه الله منهم وشرّفهم على أهل الأرض ، وأحق أهل البيت بذلك من كان من ذرّيته ﷺ .

وغير ذلك ، يعلم الشريف ، أعزه الله ، ان غلمانك من جملة الخدام ، ثم أنتم في حفظ الله وحُسن رعايته .)

المناظرة :

ويقول ابن غنام ان عبد العزيز الحصين ، لما وصل مكة ، (نزل على الشريف الملقب بـ « الفعر » واجتمع هو وعلماء مكة عنده، وهم: يحيى بن صالح الحنفي، وعبد الوهاب بن حسن التركي ، وعبد الغني بن هلال، وتفاوضوا في ثلاث مسائل وقعت المناظرة فيها :

الاولى — ما نسب الينا من التكفير بالعموم .

الثانية — هدم القباب التي على القبور .

الثالثة — إنكار دعوة الصالحين للشفاعة .

فذكر لهم الشيخ عبدالعزيز أن نسبة التكفير بالعموم الينا زور وبهتان علينا. وأما هدم القباب ، فهو الحق والصواب ، كما هو مسطور في غير كتاب ،

وليس للعلماء فيه شك ولا ارتياب .

وأما دعوة الصالحين وطلب الشفاعة منهم والاستغاثة بهم في النوازل ، فقد نص عليه الأئمة الفواضل، وقرروا أنه من الشرك الذي فعله الأوائل، ولا يجادل في جوازه إلا كل ملحــد جاهل .. فأحضروا من كتب الحنابلة (الاقناع) ، فرأوا عبارته في الوسائط وحكايته الاجمــاع ، فصار لهم بتلك العبارة اقتناع ، ولهم الى الإقرار إسراع ، وتفوّهوا بأن هــذا دين الله وانتشر بينهم وشاع ، وقالوا هذا مذهب الإمام المعظم، وانصرف عنهم عبد العزيز مبجّلاً مكرّما).

ذلك قول ابن غنــام ، وأما ابن بشر فإنه يكتفي بالإشارة إلى رحلة الشيخ الشيخ عبد العزيز الحصين إلى مكة ولا يذكر شيئاً عما حدث فيها .

عهد الشريف سرور بن مساعد :

في العام ١١٨٦ ثار الأشراف على الشريف أحمد بن سعيد وأجلوه عن مكة وولوا مكانه سرور بن مساعد ، وكانت دسائس الترك وراء ذلك ، والله أعلم .

وقــد امتدت ولاية الشريف سرور بن مساعد من عام ١١٨٦ هـ . إلى عام ١٢٠٢ هـ . أي ست عشرة سنة ، وقد أذن هذا الشريف لأهل نجد بالحج الى مكة عام ١١٩٧ هـ . ولم يقم بأي عدوان على نجد .

ويقال انه كتب إلى السلطان العثماني مظهراً تخاوفــه من توسع الوهابيين ، ونسب اليهم التفكير في الهجوم على الحرمين، وطالب بإعطائه المساعدات اللازمة للوقوف أمامهم ومقاومتهم ، وقيل كذلك انه كتب إلى ولاة الشام وبغــداد وجدد يسألهم عن المعونة التي يستطيعون تقديمها اليه فيما إذا أراد تجهيز حملة ضد الوهابيين ، فكانت الردود في جملتها غير مشجعة .

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا إن والي جدة كتب إلى الباب العالي إن تخاوف شريف مكة من الوهابيين في غير محلهــا ، وإن المسألة ليست أكثر من « حرب كلامية » ، ومناظرات في العقائد ، وليس وراءها شيء ..

ويلوم هذا المؤرخ التركي الحكومة العثمانية لتهاونها في مساعدة شريف مكة قائلاً : لعلها كانت تظن انه يريد استخدام أسلحتها ومواردها في احتلال نجد ،

لضمها إلى أملاكه ، مع انه مـا كان يفكر في ذلك قط .. ومهما يكن الأمر ، فقد كان لهـذا الشريف فضل يذكر في الوقوف أمام تفاقم النفوذ الوهابي في الحجاز ، لأنه كان محبوباً من الشعب ، وقد زاده زواجه من بنت سلطان مراكش شهرة ومكانة ..

الهدايا تليّن قلب الشريف :

ويقول ابن غنام في أخبار سنة ١١٩٧ :

(وفيها أهدى عبدالعزيز إلى سرور والي مكة ، خيلاً وركاباً ، وكرمه بذلك وشرفه ، وقصده بذلك التشريف والإكرام واهدائه النفيس الرخصة لأهل الدين والإسلام في أداء .. خامس أركان هذا الدين .. الذي منعوه من سنين .. فجاء الأمر في ذلك بالرخصة ، فشمر المسلمون .. فحجوا ذلك العام ، وكانوا نحو ثلاثمائة) .

وصف سرور :

نقل ده غوري في كتابة « حكام مكة » عن شارل ديديه ، الذي زار الحجاز في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وصفه للشريف سرور ، قال : كان سخياً جداً ، وشجاعاً ، ومنصفاً حتى مع أشد أعدائه ، وكانت سياسته متجهة إلى اصلاح الضرائب التعسفية وإصلاح الإدارة ، وبالجملة كان لويس الحادي عشر الحجاز ..

ويقول القاضي محمد بن علي الشوكتاني في كتابه « البدر الطالع » :

.. طار صيته في الآفاق وبلغ من الجد والسعي في أعمال الخير وتأمين السبل ما لم يبلغ اليه أحد من آبائه ، ولقـد كانت أخبار الوافدين للحج إلى بيت الله الحرام تخبر عنه بأخبار تسر القلوب وتشنف الاسماع .. وكان عظيم السطوة شديد الصولة قامعاً للفساد راعياً لمصالح العباد كثير الغزو لمردة الأعراب الذين يتخطفون الناس في الطرقات ، ثم مات في رجب سنة ١٢٠٢ هـ .) .

الشريف غالب بن مساعد[1] :

في العام ١٢٠٢ هـ . (١٧٨٦ م .) ، بعد وفاة الشريف سرور ، خلفه أخوه عبد المعين ، ولكنه لم يبقَ في الشرافة أكثر من يوم او بعض اليوم، ثم تخلى عنها لأخيه الشريف غالب .

ويقول ابن دحلان ان الخلعة السلطانية وصلت الى مكة في ذي القعدة ، فلبسها الشريف غالب بن مساعد ، بعد قراءة الفرمان السلطاني بالحطيم .. وأمر بالزينة ثلاثة أيام ..

وفي شهر ذي الحجة فارقه بعض الأشراف وذهبوا الى عشائر هذيل اليمانية وعادوا بها لمقاتلته ، فاستعان عليها ببعض العساكر الشامية ، التي كانت مع أمير الحاج الشامي ، وهزمهم ، فساروا الى الطائف ، فهزمهم ، ثم ساروا الى سل ، ثم عادوا الى مكة ، وجددوا القتال معه فهزمهم .. ثم تصالحوا ودخلوا مكة بأمان .

وفي العام ١٢٠٣ (حصل خلاف بين والي جدة .. وبين وزير الشريف ، فأغلق الباشا الفرضة والقبان ، وقلد قاضي الشرع بالمقاليد ، فجعل القاضي ينزل الفرضة لجمع العشور ويضبط ما تحصل من المال .. ثم عزل الشريف قاضيه لأنه سبب الفتنة .

وفي ذلك العام أغرى أحد أنصار الشريف سرور أحد أولاده ، وهو الشريف عبد الله بن سرور ، وكان صبياً لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، بأن يطلب الشرافة لنفسه ، وجمع له ٥٠٠ عبد وضربوا بالرصاص على بيت الشريف غالب وقطعوا طرقات مكة أياماً ، ثم تمّ التغلب عليهم وهرب موقظ الفتنة الى مصر) .

---

(١) يقول ديديه ، في وصف الشريف غالب : (كان رجلاً جسيماً ، تعلم صناعة الحرب وهو فتى ناشىء ، وكان جذاباً حلو الحديث مهذباً ولكنه مستبد) . انظر حكام مكة .

المكاتبات بين الشريف والدرعية .. والمناظرة :

كانت السنتان الاوليان من حكم الشريف غالب – كما رأينا – مستغرقتين بأفراح الخلعة السلطانية ثم بالفتن الداخلية . فلما انتهى من ذلك واستقر حكمه، كان لا بد له من تحديد سياسته نحو الدرعية ، وخصوصاً قضية الحج .. فبدا له أن يكتب الى الإمام عبد العزيز ويطلب منه عالماً من أهل نجد يشرح له حقيقة الدعوة.. فلما وصلت رسالته الى عبد العزيز والشيخ، اختارا له الشيخ عبدالعزيز الحصين ، الذي أوفد الى مكة من قبل بمثل هذه المهمة ..

وصل الشيخ عبد العزيز الى مكة فأكرمه الشريف غالب واستمع الى أقواله في أكثر من مجلس ، وكانت مع الشيخ رسالة كتبها الشيخ محمد بن عبد الوهاب الى علماء مكة ، هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

(من محمد بن عبد الوهاب الى العلماء الأعلام في البلد الحرام نصر الله بهم سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ، وتابعي الأئمة الأعلام ،

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد .. جرى علينا من الفتنة ما بلغكم وبلغ غيركم ، وسببه هدم بنيان في أرضنا على قبور الصالحين ، ومع هذا نهيناهم عن دعوة الصالحين وأمرناهم بإخلاص الدعاء لله ، فلما أظهرنا هذه المسألة مع ما ذكرنا من هدم البناء الذي على القبور كبر على العامة وعاضدهم بعض من يدّعي العلم ، لأسباب ما تخفى على مثلكم ، أعظمها اتباع الهوى ، مع أسباب أخر ، فأشاعوا عنا أنّا نسب الصالحين وأنّا على غير جادة العلماء ، ورفعوا الأمر الى المشرق والمغرب ، وذكروا عنا أشياء يستحيي العاقل من ذكرها ، وأنا اخبركم بما نحن عليه، بسبب ان مثلكم ما يروج عليه الكذب على أناس متظاهرين بمذهبهم عند الخاص والعام ..

فنحن، ولله الحمد ، متبعون لا مبتدعون، على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. وتعلمون – أعزكم الله – ان المطاع في كثير من البلدان لو يتبين بالعمل بهاتين المسألتين انها تكبر على العامة الذين درجوا هم وآباؤهم على ضد ذلك ، وأنتم

تعلمون – رحمكم الله – أن في ولاية الشريف أحمد بن سعيد وصل اليكم الشيخ عبد العزيز بن عبد الله ، وأشرفتم على ما عندنا ، بعد ما أحضروا كتب الحنابلة التي عندنا عمدة ، كالتحفة والنهاية عند الشافعية ، فلما طلب منا الشريف غالب – أعزه الله ونصره – امتثلنا ، وهو اليكم واصل ، فإن كانت المسألة إجماعاً فلا كلام ، وإن كانت مسألة اجتهاد فمعلومكم انه لا إنكار في مسائل الاجتهاد ، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا ينكر عليه ، وأنا أشهد الله وملائكته اني على دين الله ورسوله ، واني متبع لأهل العلم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .)

علماء مكة يستكبرون .. ويرفضون المناظرة :

طلب الشيخ عبد العزيز من شريف مكة أن يجمعه بعلماء مكة ليناظرهم ويبين لهم حقيقة الدعوة ، ولكن علماء مكة رفضوا المناظرة ، وأجابوا الشريف بأن (هؤلاء جماعة ، ليس عندهم بضاعة ، إلا إزالة نهج آبائك وأجدادك ، ورفع يدك عن معتادك وجوائز بلادك .

فطار لبُّه وارتعش قلبه) .

ذلك ما قاله ابن غنام عن مهمة الحصين الجديدة في مكة ، وأما ابن بشر فلم يُشِرْ اليها إطلاقاً .

الشريف غالب يتنكر للدرعية :

لما رأى الشريف غالب توسُّع الحركة الوهابية وانضمام بعض العشائر الحجازية – او الخاضعة لنفوذ الشريف – اليها ، خاف منها من ملكه ، فكتب الى الدولة العثمانية يبين لها (خطر) الوهابيين ويخوفها من هجومهم المرتقب على الحرمين ويطلب منها الإسراع في إمداده بالرجال والسلاح لمقاومتهم ، ثم كتب الى الولاة العثمانيين في العراق والشام يندبهم الى القتال معه .. فلم يستجب اليه أحد ، وأخيراً .. رأى أن يبدأ هو – وحده – الحملة على نجد ، لعلها تصيب بعض النجاح ، فتشجع الولاة العثمانيين على تأييده ، او تحمل بعض البلدان والعشائر التي قبلت الدعوة الوهابية مكرهة – في زعمه – على الثورة والانتقاض .

ويزعم مؤلف اللمع ان سبب عداء الشريف غالب للدرعية هو ان سعود بن عبد العزيز غزا قوماً من (مطير) كانوا معاهدين وملتجئين للشريف [1] ، وان الشريف – من جهة ثانية – لما (رأى ان عبدالعزيز أدخل يده في ملك بني خالد، خشي ان يدخل النقص عليه في ملكه ، وكان الشريف « مهيوباً » وله جاه كلي في جزيرة العرب وغيرها من الأقطار الإسلامية ، فبدأ الشريف غالب بتهيئة الحرب وأسبابها .. وقد استمال الشريف كثيراً من بداة نجد كمطير وعتيبة والبقوم وأهل تربة وسبيع وغيرهم من القبائل ، وكذا كثير من قحطان وبعض الدواسر ، فأطاعوا الشريف غالب ، و « اختلفوا » على عبد العزيز ، وهذا في مدة شهر او شهرين من تلك السنة التي وقع فيها ابتداء الحرب بين الشريف وبين آل سعود) .

ويقول المؤلف المذكور أيضاً ان الشريف غالب كتب الى رؤساء الاحساء يشجعهم على حرب عبد العزيز ويعدهم الالتقاء بهم على أرض نجد [2] .

معارك الشريف غالب :

يقول ابن دحلان ان الشريف غالب قام بأكثر من خمسين غزوة ضد الوهابيين في نجد ، وضد أنصارهم وحلفائهم في الحجاز وعسير ، وذلك من سنة ١٢٠٥ هـ. إلى سنة ١٢٢٠ هـ .

وقد تمعنا في رواياته لهذه الغزوات فوجدنا أكثرها حملات يسيرة صغيرة ضد جماعات أو أفراد من أنصار الدعوة الوهابية لا تستحق اسم غزوة .. وسنذكر على كل حال أهم تلك الغزوات .

---

(١) ذكر ابن غنام في أخبار سنة ١٢٠٥ غزو سعود لمطير بأرض الجريسية وقتله منهم خمسين نفرا واستيلائه على أموالهم .

(٢) يقول مؤلف اللمع ان الشريف غالب كان عند غزوه الأول لنجد حديث السن لم يعط تدبير الحروب، وإن سبب رجوعه إلى مكة إن الميرة قلت عنده، وخاف أن يدخل أحد أمراء الترك مكة في غيابه وينصب شريفاً غيره ، لأن الأتراك لم يكونوا راضين عنه .. ثم يستدرك فيقول : ولكن الحق الصحيح انه عجز عن الحرب .

غزوة السر – عام ١٢٠٥ هـ . :

سارت الغزوة الأولى من غزوات الشريف غالب إلى نجد بقيادة أخيه الشريف عبد العزيز بن مساعد ، ويقول ابن بشر في وصفها :

(سار عبد العزيز بقوة هائلة وعدد وعدة وعسكر كثيف ، نحو عشرة آلاف أو يزيدون ، ومعهم أكثر من عشرين مدفعاً ، وكان قصدهم الدرعية ومنازلتها ، فضلاً عن غيرها من البلدان ..

فأقبلت تلك العساكر والجنود ، وسار معهم كثير من بوادي الحجاز وشمر ومطير وغيرهم ، فملأوا السهل والجبل ، وصار في قلوب المسلمين منهم وجل ، فنازلوا (قصر البسام) المعروف في السر ، وحاصروا أهله أكثر من عشرة أيام ونصبوا عليه المدافع وضربوه ضرباً هائلاً فكادوه بأنواع القتال وليس في ذلك القصر إلا نحو من ثلاثين رجلاً من أهله ومن هيتم وغيرهم .

فلما رأى الشريف عبد العزيز امتناع هذا القصر ، ولم يعطوه الدنية ، رحل عنهم . وكان بناء هذا القصر ضعيفاً وأهله أضعف ولكن الله إذا قضى أمراً كان مفعولا) .

غزوة الشعراء – سنة ١٢٠٥ هـ . :

يصف مانجان غزوة السر كما وصفها ابن بشر ، ثم يقول إن الشريف عبد العزيز لما رأى عجزه وضعفه أراد الاحتيال على أخيه الشريف غالب ليحضر وينجده ، فأرسل اليه كتاباً يقول فيه إن كثيراً من أهل نجد تركوا ما كانوا عليه من « الضلال » وعادوا إلى الجماعة ، وهم ينتظرون مجيء الشريف غالب للانضمام اليه والمبايعة له .. فأسرع الشريف غالب بالحضور ، وكان معه مقاتلة كثيرون من الحضر والبدو ، وحاصر هو وأخوه بلدة الشعراء في عالية نجد قريباً من شهر .. فلم ينالوا منها منالاً فعادوا إلى مكة خاسرين .

ويقول ابن بشر إن حصار الشعراء دام أكثر من شهر ؛ وان الشريف غالب ورجاله كادوها بأنواع القتال .. وجعلوا بين رصاص المدافع سلاسل من الحديد

وربطوا فيها ضلوع الحديد وضربوا بها الجدار .. فلم ينفعهم ذلك واضطروا إلى الرحيل عنها ، بعد أن قتل منهم أكثر من خمسين رجلاً ، ولم يكن في تلك القرية إلا نحو أربعين رجلاً ..

ويزعم ابن دحلان ان الشريف غالب استجاب لطلب أهل الشعراء الذين التمسوا منه الأمان فأعطاهم الأمان وعاد إلى مكة ليحضر موسم الحج .

وصف المعارك في المقامات :

وصف الشيخ عبد الرحمن بن موسى معركتي قصر بسام والشعراء في مقامه الرابع ، قال :

(..ما جرى من العبر في حرب أشراف مكة لهذه الدعوة والطريقة المحمدية وذلك أنهم من أول من بدأ المسلمين بالعداوة فحبسوا حاجهم فمات في الحبس منهم عدد كثير ومنعوا المسلمين من الحج أكثر من ستين سنة .. وفي هذه المدة سار اليسم الشريف غالب بعسكر كثيف وكيد عنيف ، فقدم أخاه عبد العزيز قبله بالخروج فنزل على قصر بسام فأقام مدة يضرب بالمدافع والقنابل وجر عليه الزحافات ، فأبطل الله كيده على هذا القصر الضعيف بناؤه القليل رجاله فرحل منه ووافى (غالبا) ومعه أكثر الجنود، ومعه من الكيد مثل ما كان مع أخيه أو يزيد ، ونزلوا جميعاً بـ (الشعرى) فأخذ بحربهم بكل كيد ، فأعجزه الله هو ومن تبعه عن ذلك البناء الضعيف الذي لم يتأهب أهله للحرب بالبناء ولا بالسلاح فأبطل الله كيده ورده عنهم بعد الاياس والافلاس ، فسلط الله المسلمين على من كان معه من الاعراب وخصوصاً « مطير » فأوقع الله بهم (العدوة) ، ومعهم مطلق الجربا فهزمهم الله تعالى وغنم المسلمون جميع ما كان معهم من الإبل والخيل وسائر المتاع) ..

معركة العدوة مع مطير وشمر
وحصان ابليس .. ومسلط الجربا :

يصف لنا ابن بشر معركة العدوة – التي جاء ذكرها في المقامات – ومـا

كان لها من ذيول فيقول : ان سعود أراد معاقبة البوادي من مطير وشمر التي انضمت إلى الشريف غالب وساعدته ، فتبع هؤلاء البدو ، بعد أن انفردوا عن عن الشريف عائدين إلى مواطنهم ، وكانوا قد نزلوا على مـــاء قرب بلد حائل يدعى (العدوه) فلما التقى الجمعان وقع بينهم قتال شديد ، انتهى بهزيمة البدو هزيمة ساحقة ، وقد قتل من مشاهير فرسانهم: مسعود الملقت(حصان إبليس) وسمرة رئيس العبيات من مطير وغيرهمـا كثير ، وغنم المسلمون إبل المغلوبين وغنمهم وأثاثهم وأمتعتهم وكل ما في محلتهم .

ويردف ابن بشر بعـد ذلك قائلاً : (وهذه الوقعة في آخر الأضحى ، فلما انهزم اولئك البوادي استنفروا ما يليهم من قبائلهم وغيرهم ممن لم يحضر الوقعة وأرسلوا الى سعود يدعونه للمنازلة وانهم يريدون ان يسيروا اليه ، فثبت لهم وأقبلوا اليه مقرنين الإبل ، وهو على العدوة يقسم الغنائم ، فساقوها على جموع المسلمين ، فثبتوا لهم .

وكان في مقدم البوادي (مسلط بن مطلق الجربا) ، وكان قد نذر ان يجشم فرسه صيوان سعود ، فأراد ان يتم نذره ، فاختطفه المسلمون وضربه رجـــل بشوى قرص فطرحه عن جواده فقتل ، وانهزمت تلك البوادي لا يلوي أحد على أحد ولا والد على ما ولد ، وتركوا الإبل مقرنة في الحبال فتبعهم المسلمون وأخذوا جميع أموالهم من الإبل والغنم والأمتعة ، وأقاموا في اثرهم نحو يومين او ثلاثة يأخذون من الأموال ويقتلون الرجال ، وحاز سعود جميع الغنائم من الإبل ، نحو أحد عشر الف بعير وأكثر ، ومن الغنم أكثر من مائة الف ، وعزل الخمس ، وقسم باقيها في المسلمين ، للراجل سهم وللفارس سهمان)[1] .

---

(١) في اللمع أن مطير انحازوا الى أرض شمر وانفقوا مع مطلق الجربا وبادية شمر ، فكدر الحضر في حائل هـذا الحلف وأرسلوا الى عبد العزيز يطلبون النجدة ، فأمر ابنه سعود بالذهاب الى هؤلاء البدو ومقاتلتهم ففعل ، وكان معه رجال من العارض وكذلك (هـادي بن قرملة) في جماعة من قحطان .. وان مطلق الجربا جلا الى العراق بعد هزيمته ومصرع ولده .

الشريف يستنجد بالأتراك :

عاد الشريف غالب الى مكة ، بعد هزيمة الشعراء ، مهيض الجناح ، ورأى نفسه في رقعة ملكه الصغيرة كمن يعيش في جزيرة تضربها الأمواج من كل جانب وتتهددها بالفيضان والغرق ، ذلك ان الدعوة الوهابية انتشرت بين القبائل الحجازية وامتدت الى عسير واليمن، وعرف الشريف غالب انه لا يستطيع كسر هذا الطوق الذي أحكم حوله ووقف المدّ الوهابي المتعاظم إلا إذا مدّت اليه الدولة العثمانية يد المساعدة فأعادت الى طاعته هذه القبائل التي تمرّدت عليه وبايعت لعبد العزيز على السمع والطاعة ، ففقد بفقده لها أنصاراً وموارد ومنعة، وأصبح يترقب النقص ويخشى الزوال ..

هل بالغ الشريف غالب في تصور الخطر الوهابي على الحرمين او في تصويره للناس ، ليدفع السلطان العثماني وولاته في الشام والعراق ومصر الى التدخل لمصلحته ، أم كان هذا الخطر حقيقياً وهو يحاول تفاديه بإخلاص ؟

لقد جمع الشريف علماء مكة والمدينة واستكتبهم رسائل الى السلطان العثماني يطلبون فيها النجدة العاجلة لإنقاذ البلاد المقدسة من خطر عظيم يتهددها.. فأهل السنّة معرّضون للذبح ، وقبر النبي ﷺ سوف يستباح .. و (دلائل الخيرات) سوف تُمزق وتُحرق.. الخ. الخ . إذا ترك السلطان الدعوة الوهابية تقرع أبواب الحرمين.. ولم يسرع بإرسال جنوده لمقاتلة الوهابيين ووضع حد حاسم لتحدياتهم المستمرة .

هذا شيء من الأضاليل والسخافات التي كان يشيعها الشريف غالب ورجاله، ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب أرسل في شعبان من سنة ١٢٠٧ هـ . مندوبين عنه – هما محسن الحمودي وحسين مفتي المالكية – الى استانبول لمقابلة السلطان وأصحاب الشأن، وتحريضهم على الوهابيين، ولكن أحداً لم يكترث لهما..

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا ان الجزار حج عام ١٢٠٨ هـ . فشكا اليه الشريف ما يعانيه من صعوبات ومتاعب بسبب اعتداءات الوهابيين المتزايدة على المناطق الخاضعة لسلطانه ونفوذه منذ القديم..فأشار عليه بكتابة تقرير مفصّل

يبين كل ذلك وإرساله الى السلطان ، ففعل ، ولما وصل التقرير الى السلطان أرسله الى مجلس الشورى لدراسته وإبداء الرأي فيه ، فاجتمع المجلس، وكان بين أعضائه وزراء سبق لهم حضور ندوات عقدها (المولوية) ، ذكروا فيها ان الوهابيين يستنكرون (التجويد) في القرآن وقراءة (دلائل الخيرات) ويحرمون بناء القباب على القبور ، وبناء المآذن ، وطلب الشفاعة من الأولياء او من النبي ﷺ ، وانهم يرون الأكل بالملاعق بدعة .. الى أمور كثيرة قابلة للجدل، ولكن أخطر ما قالوه هو ان الشيخ محمد بن عبد الوهاب كان يهدد دائماً بتدمير مكة ومعاقبة أهلها وتهديم قبر الرسول ﷺ – كذا .. –

لم يرَ أعضاء المجلس ضرورة لاتخاذ أي إجراء، تلبية لطلب الشريف غالب، ولعلهم كانوا يعتقدون :

١ – ان القضية بين الوهابيين وخصومهم قضية مناظرات ومجادلات ومنافسات مذهبية وليس فيها خطر على الدولة .

٢ – ان القول باحتمال تأليف حكومة قوية في جزيرة العرب ، تحل محل السلطة العثمانية هو مجرد وهم او إيهام يقصد منه حمل السلطان العثماني على التدخل لمصلحة شريف مكة الذي يريد توسيع ملكه وتقوية نفوذه على حساب السلطان العثماني .

٣ – لم يستطع أعضاء مجلس الشورى الرد على حجج الوهابيين القوية في تأييد وجهات نظرهم ومعتقداتهم كما بيّنوها في كتاباتهم وكتبهم ، وأما ما يقوله خصومهم فلا يمكن اتخاذه أساساً للبحث لأنه قد يكون موضوعاً على ألسنتهم ومفترى عليهم .

ويخلص المؤلف التركي أخيراً الى لوم مجلس الشورى لأنه حمل الى نفس السلطان طمأنينة كاذبة ، فأهمل مواجهة الموقف بما ينبغي له من الحزم قبل أن يتفاقم الأمر وتتعاظم المصاعب .

والحقيقة هي أن الشريف غالب أخطأ كثيراً بتوجهه الى سلطان الترك ليردّ عنه ما يزعمه اعتداء من الوهابيين على (ممتلكاته) وعشائره ومناطق نفوذه

وتلويحه بالخطر الوهابي على الحرمين وعلى أهل السنّة ونحو هذا.. ليحمل السلطان على التحرك والنجدة .. فقد كان أولى له وأنفع لبلاده وللمسلمين عامة أن يسمى جاهداً الى التفاهم مع الدرعية مهما يكن الثمن، فرجال الدرعية اخوان له عرب متمسكون بدينهم وأخلاقهم ، والاتفـــاق معهم يضمن له وللعرب كرامتهم وحريتهم وعزتهم ، وليس الأمر كذلك مع السلطان العثماني ..

لم يتفتح قلب الشريف غالب لإدراك هذه الحقيقة إلا بعـــد معارك خاسرة خاضها ضد الوهابيين، وبعد توثقه من استخفاف السلطان العثماني بشأنه. ويمكن القول ان معركة (الجمانية) ، كانت بدء التحول في سياسة الشريف غالب نحو الدرعية ، ومن المؤسف انه لم يستمر في سياسة الاخوة وعاد الى قديم عهـده في موالاة السلطان العثماني واستفزازه ضد أهل نجد .

وها نحن نلمّ بما كان بين الشريف والوهابيين من معارك حتى عام ١٢١١ هـ . وهو العام الذي أظهر فيه رغبته في التفاهم مع الدرعية .

معارك بين الشريف غالب والوهابيين (من سنة ١٢٠٨ الى سنة ١٢١٠ هـ) :

ذكر ابن دحلان خمس غزوات وقعت من الشريف غالب ضد أنصار الدعوة بين عام ١٢٠٨ هـ . وعام ١٢١٠ هـ . ، وهي :

١ – في ذي الحجة ١٢٠٨ هـ. هاجم المضايفي – وكان من رجال الشريف – برجال من البقوم وغيرهم جماعة ابن قيحان وأخذ إبلهم وعاد بها إلى مكة .

٢ – في عام ١٢٠٩ هـ . سار الشريف غالب عبد المعين إلى « رغوة » حيث كان يقيم « هادي بن قرملة » ، فلما عرف هـــذا مقدم الشريف هرب ، فسار الشريف إلى « رنية » ، وكان فيها ابن قطنان فأسره وأرسله إلى الشريف غالب فمنّ عليه وأطلقه ، فعـاد إلى الغدر ، ثم استطاع الشريف غالب أن يمسك به فقتله ، ثم سار الشريف إلى بريم وشعيا ثم إلى سياج الخيل ، حيث كانت جماعة من المتوهبين من هتيم ومطير ، ففرت مطير ، وأما هتيم فبقيت فقتل منهم كثيراً وأخذ مواشيهم ثم رجع إلى مكة .

٣ – عام ١٢١٠ هـ . سار ناصر بن سليمان إلى آل روق المتوهبين ، وقتلهم قتلة شنيعة وأخذ ابلهم .

٤ – عام ١٢١٠ هـ. أرسل الشريف غزواً إلى رنية ، حيث كان ينزل هادي ابن قرملة ، فقتلوا من جماعة هادي حوالي ١٠٠ ثم صادفوا جماعة من قحطان تحت امرة ابن قيحان ، فقتلواعدداً منهم وأخذوا ابلهم .

٥ – عام ١٢١٠ هـ . التقى ناصر بن سليمان في الشماس بجيش وهابي ، فيه ابن ربيعان وهادي بن قرملة والدوشان وغيرهم ، وقد قتل من جماعة الشريف ثلاثة وأربعون رجلاً ، واستولى الوهابيون على كثير من المواشي وعـاد ناصر إلى مكة منهزماً .

لا يذكر ابن بشر ، في تاريخه شيئاً من هذه الغزوات ، ولكنه يتحدث عن غزوة قام بها عبد الله بن محمد بن معيقل ، صاحب بلد شقراء ، ضد بوادي عتيبة سنة ١٢٠٨ هـ . ويقول ان قتالاً شديداً نشب بين الفريقين في أرض البغث ،الجبل المعروف في ركبة ، « ثم وقع على الغزو هزيمة وأخذ من ركائبهم قريب مئة مطية ، وقتل من الغزو رجال وقتل من عتيبة عدد كثير » .

معركة الجمانية :

في عام ١٢١٠ هـ.أرسل الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد ضد بوادي قحطان التي كان يتزعمها هادي بن قرملة ، فأنزلت بهم خسائر فادحة ، ويقال ان الشريف فهيد أسر ابن قرملة ثم عفا عنه وأطلقه .

يسمي المؤرخ التركي جودت باشا هذه المعركة باسم « روغ النعام » ، زاعماً انه مكان المعركة ، ويقول ابن غنام ان البوادي التي كانت مع فهيد فاجأت ابن قرملة على ماء يقال له : (ماسل) ، وكانوا قد قتلوا « عيونه » حتى يعموا عليه أخبارهم ، فدهموه في بعض الشعاب فقاتلهم ثم انهزم، وقتل من بوادي قحطان التي كانت مع ابن قرملة ٣٠ رجلاً .

لم تسكت الدرعية عن هـذه الهزيمة تنزل بحليفها فقد سار سعود إلى الحجاز

وأغار على فرسان من عتيبة ومطير كانوا متجمعين في الحرة وقتل منهم ثلاثين رجلاً وسار مبارك بن هادي إلى ناحية نجران وأغار على بواديها وقتل منهم رجالاً وأخذ أموالهم وأرسل أخماسها إلى عبد العزيز .

ثم كانت المعركة الكبيرة التي ثأر بها سعود لهادي بن قرملة ...

وقعت المعركة في (الجمانية) ، وهي مورد ماء بعالية نجد ، ويبدو أن سعود لم يشترك فيها بنفسه ، ولكنه أرسل إلى هادي بن قرملة) الذي كان يقاتل حملة كبيرة جهزها ضده الشريف غالب بقيادة الشريف ناصر بن يحيى) جموعاً عظيمة من بوادي عتيبة ومطير والسهول والعجمان وغيرهم ، ثم انضم اليهم رجال الدواسر .

قال ابن غنام :

(فاجتمعت تلك البوادي والجنود قرب الماء المعروف بالجمانية في عالية نجد عند جبل النير ، من مياه قريبة منهم .

ثم إن الشريف ناصر سار بالجموع والعساكر العظيمة ومعهم مدفع ، ونزل على ماء الجمانية ، واجتمع عليه كثير من بوادي الحجاز بأموالها وأهلها ، فالتقت الجموع على الماء المذكور ، فحمل هادي بن قرملة ومن معه على جنود الشريف فولوا منهزمين ، فلحقتهم تلك البوادي والجنود ، ومنحهم الله أكتافهم وأموالهم فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل ، وغنم منهم هادي وجموعه من الإبل والغنم والأمتعة ما لا يعد ولا يحصى ، حتى ذكر ان الرجل والرجلين يحوزون مائة بعير ، وأخذوا خيمة ناصر ومدفعه ، وهرب ومن معه إلى أوطانه ، وعزلت أخماس تلك الغنائم وقبضها عبد العزيز) [1] .

---

(١) في ابن غنام ان عبد العزيز بعث محمد بن معيقل في أثر بوادي الشريف ، وأدرك منهم بني هاجر على الماء المعروف بالقنصلية قرب بلدة تربة فأغار عليهم وأخذ جميع أموالهم وقتل منهم نحو أربعين رجلا .

وفد من علماء نجد الى مكة :

أراد الشريف غالب ، بعد هزيمة جنده في الجمانية ويأسه من معونة السلطان العثماني ، التقرب من الدرعية ، فأرسل مندوبين عنه الى الأمير عبدالعزيز في الدرعية ، ليطلبوا منه باسمه علماء من أهل نجد يحضرون معهم الى مكة ويبينون لأهلها حقيقة الدعوة التي نهض بها الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب ورجال نجد . قال ابن غنام : (فلما عرف إمام أهل الإيمان ما قصده ذلك الإنسان ، وما حرص عليه من المناظرة لديه والتبيان ، رغب أن يكون انفتح له من الدعوة شي ، او نشر له من الحق طي ..

وكان من حسن سيرة عبد العزيز وفطنته ، وبديع هديه وسنّته .. انه يدعو الى الله تعالى بالتي هي أحسن وأحكم .. فرأى إسعافه بذلك المرام .. فعسى أن يكون له سبباً للسعادة ..

فعند ذلك أرسل اليه من أهل الدين مَن يكشف له عن شبه المبطلين ..)

وهكذا جاء الى مكة وفد من كبار علماء نجد ، عُرفوا بحسن المناظرة وقوة الحجة ، وكان على رأسهم الشيخ حمد بن ناصر بن معمر ، وقد أرسل معهم سعود جزوراً كثيرة لتنحر في المروة .

وصل علماء نجد الى مكة فاستقبلهم الشريف غالب بطلاقة وجه وأكرمهم كثيراً ، وعقد لهم في قصره مجالس للمناظرة مع علماء مكة .

بدأت المناظرة في ١١ رجب سنة ١٢١١ هـ . وكان الشيخ عبد الملك الحنفي أكثر علماء مكة مشاركة وحماسة في إيراد الأسئلة .

في المجلس الأول سأل علماء مكة لماذا يقتـــل الوهابيون مَن ينسبون اليهم الشرك ، مع انهم ينطقون بالشهادة ؟

فأجابهم الشيخ حمد أجوبة مُقنعة ، ولكنهم لم يرتضوها ، لأنهـا ليست في كتبهم ، كما قالوا .. فذكر لهم الشيخ الأدلة من كتبهم ، فسكتوا .

وفي المجلس الثاني سأل علماء مكة عن السبب في تحريم دعـــاء الأموات

والشفاعة ونحو ذلك ، فأجابهم الشيخ حمـــد أيضاً أجوبة ُمقنعة ، ولكنهم لم يقتنعوا بها وردُّوا عليها رداً شديداً .

وأخيراً طلبوا من الشيخ حمـــد أن يكتب لهم بخطه الحجج التي أوردها والأجوبة التي أجاب بهـا عن أسئلتهم لينظروا فيهـا ويقولوا رأيهم الصريح بمحتوياتها ، فاستجاب لطلبهم ، وكتب بذلك رسالة مطولة ، ُعرفت فيما بعـد باسم : (الفواكه العذاب في الرد على مَن لم يحكم السنـّة والكتاب) .

لم يسلم علماء مكة بمـا ورد في رسالة الشيخ حمد وما كان ينتظر منهم أن يفعلوا ، لأن اولئك (العلماء) كانوا – في الحقيقة – في خدمة السلطان العثماني وكانوا يتناولون مرتباتهم منه او بأمره [1] .

---

(١) نشر ابن غنام رسالة الشيخ حمد بنصها الكامل ، بينما أغفلها ابن بشر تماماً ، بل أغفل أمر المناظرة كله وما زلنا نتعجب من ذلك. وقد نشرت الرسالة في عدة مجموعات وطبعت مراراً.

وهذه رؤوس عناوين للمسائل وأجوبتها ، كما جاءت في رسالة الشيخ حمد :

المسألة الاولى : ما قولك فيمن دعا نبياً او ولياً واستغاث به في تفريج الكربات ؟

خلاصة الجواب : لم يقع مثل هذا ، لا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولا في عهد أصحابه. والموتى يدعى الله لهم ، ولا يجوز أن يكونوا وسائط بين الله وبين الناس ، يدعونهم ويتوكلون عليهم ، ومن يفعل ذلك يشرك ويكفر بالإجماع .

المسألة الثانية : من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ولم يصل ولم يزك هل يكون مؤمناً ؟

خلاصة الجواب : إن قالهـــا ، وهو مقيم على الشرك يدعو الموتى ويسألهم قضاء الحاجات ، فهو مشرك .

واختلف العلماء في تارك الصلاة كسلاً من غير جحود، فأبو حنيفة، والشافعي في أحد قوليه، لا يكفرانه ، والإمام أحمد بن حنبل والشافعي في أحد قوليه ، يكفرانه !

والاجماع على أن الطائفة الممتنعة، تقاتل على ترك الصلاة ومنع الزكاة، وإن أقروا بالوجوب.

وقد صرح العلماء، أن أهل البلد إذا تركوا الأذان والإقامة يقاتلون، وصرحوا بأنهم لو تركوا إقامة صلاة الجماعة يقاتلون ، وكذا لو تركوا صلاة العيد !

وعلماء حرم الله الشريف ، يقولون : من قال لا إله إلا الله ، فقد عصم ماله ونفسه ، ولو لم يعمل بمقتضاها ، وإن لم يصل ولم يزك !

... وهل هذا إلا معارضة لكلام الله ورسوله وكلام أئمة المذاهب ؟ – انظر الصفحة التالية –

عربان الحجاز يدخلون في طاعة عبد العزيز :

أخذت دعوة الشيخ محمـد بن عبد الوهاب تنتشر بين بوادي الحجاز وبعض البلدان في جبال عسير ، مثل بيشة وتربة ، التي كانت خاضعة لأشراف مكة ، فأثار ذلك هلع الشريف غالب ودفعه إلى القتال مراراً ، ولكن قتـــاله لم يزد الدعوة إلا انتشاراً .

ويبدو لنا ان أقدم أنصار الدعوة في أعالي الحجاز وما يليها وأشهرهم هو : (هادي بن قرملة)، واسم أبيه غانم ولكنهم كانوا يدعونه باسم أُمه قرملة [1].

وفـد ابن قرملة على الدرعية عام ١٢٠١ هـ . وبايع وحضر دروس الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ثم عاد الى وطنه يدعو بدعوة الشيخ السلفية ، فأصاب نجاحاً كبيراً وأصبح رئيساً على (قحطان) ، بعد دخول جماعة كبيرة من هذه القبيلة في الدعوة ، ولم يكن ابن قرملة قبل ذلك من الرؤساء والأعيان، ولكن قدمه علمه واخلاصه وشجاعته .

وفي العـــام ١٢٠٨ هـ . غزا ابن قرملة عشائر البقوم وبني هاجر وهزمهم واستاق ثلاثة آلاف من ابلهم،وقد اشترك معه في تلك الغزوة بأمر من عبد العزيز محمد بن معيقل،وكان معه جنود من أهل الوشم وعرب من مطير وعشائر أُخرى.

وفي العام ١٢١٠ هـ . جهز الشريف غالب حملة بقيادة الشريف فهيد للانتقام

.. وفي الاقناع في كتاب الصلاة : .. فإن تركها تهاوناً وتكاسلا .. يهدده ، فإن أبى أن يصليها ... وجب قتله .. ولا يقتل حتى يستتاب ثلاثة أيام ...

المسألة الثالثة : وهي مسألة البناء على القبور ...

الجواب : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن البناء على القبور وأمر بهدمه .

وعنه صلى الله عليه وسلم : أنه نهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه وأن يكتب عليه .

وعن علي رضي الله عنه: أنه قال لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ولا قبراً إلا سويته !

وعن ابن عباس : لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج !

(١) ابن غنام .

من ابن قرملة ، وقد استطاعت هـذه الحملة مفاجأة ابن قرملة في شعب من الشعاب كان ينزل فيه وقتلت ثلاثين من رجاله ، ولكنه استطاع الافلات من أعدائه والنجاة ، وعاد مرة اخرى الى الإغارة على عشيرة البقوم في « تربة » ، وقتل منهم نحو مائة رجل وغنم ألوفاً من الإبل والأغنام ، فجاء رؤساء البقوم، في أعقاب هزيمتهم ، الى الدرعية وبايعوا لعبد العزيز على دين الله ورسوله .

وفي العام ١٢١٢ هـ . أرسل الشريف غالب فرقه من جنوده ، بقيادة صهره عثمان المضايفي ، الى (عقيلان) ، حيث كان ينزل مسفر بن نقيحان ، شيخ آل روق من بوادي قحطان، ولكن مسفر ورهطه وعرباً آخرين كانوا معه قاتلوا جند الشريف ومنعوهم من الوصول الى عين المـاء القريبة منهم وقتلوا خمسين جندياً فاضطرت الفرقة الى التراجع منهزمة حتى لا يموت رجالها عطشاً ان لم يموتوا في ساحة القتال .

وفي هذا العام ١٢١٢ هـ . أيضاً سار أمير الدواسر الى بيشة والجنينة وحاصرهما وقاتلها واضطرهما الى التسليم والبيعة لعبد العزيز على السمع والطاعة ولما بلغ ذلك إلى الشريف غالب أرسل فرقة من جنده إلى هاتين البلدتين وحاصرهما وأسر وقتل كثيراً من أهلها واستولى على كثير من أموالها ، ثم سار جنوده الى (رنية) ، فخرج أهلها اليهم وقتلوا منهم نحو مائة ، فانهزم جنود الشريف وعادوا الى مكة ..

اتفاق رؤساء عتيبة ورؤساء حرب وغيرهم ..

ولم ينقض هذا العام ١٢١٢ حتى تم التفاهم بين حمود بن ربيعان ، من رؤساء عتيبة ، وبين رؤساء (حرب) وغيرهم من عربان الحجاز ، على الدخول في طاعة عبد العزيز ، فأرسلوا وفداً منهم الى الدرعية وعرضوا على عبد العزيز المبايعة على السمع والطاعة ، فقبل منهم ، ولكنه (جعل على كل بيت شيئاً من الدراهم ، وعلى كل سلف ركاباً وسلاحاً وخيلاً ، وذلك عقوبة لهم نكالاً ، لأنهم مالوا الى طريق المبطلين .. وكان التنكيل بالمال .. سنة عبد العزيز في من عدل

عن الحق وركب طريق الاعوجاج .. وقبل عرب الحجاز مـا فرضه عليهم عبد العزيز وتمسكوا بطاعته) [١] .

معركة الخرمة :

لم يسَع الشريف غالب ، وهو يرى مــدّ البحر السعودي يحيط به من كل جانب ، إلا أن يجمع قواه لمعركة كبيرة حاسمة ، تعيد اليه تلك العشائر التي تتبع القوي دائماً .

فسار « بالعساكر العظيمة من البادي والحاضر و (المصارية) والمغـــاربة وغيرهم في عدد وعدة وكيد هائل » [٢] الى قتال هادي بن قرملة ، الذي تحدّاه غير مرة ، فرأى في طريقه عيوناً لابن قرملة فأمسكهم وتهددهم وسألهم عن مكان تجمُّع عربان قحطان مع رئيسهم ، فدلّوه على مكانهم ، فمشى اليهم ونازلهم وغنم منهم .

ثم سار الى (رنيه) التي دخلت في طاعة عبد العزيز ، ونزلهـا ابن قرملة ، فأبوا التسليم اليه ، فقطع نخيلهم وقاتلهم ، واستمرت المعـارك بينهم أياماً سقط خلالها أكثر من مائة قتيل ، ولكن (رنيه) بقيت صامدة ، فتركها ، وذهب الى (بيشة) بدعوة من جمـاعته ، الذين طلبوا منه أن يحضر الى بلادهم لتأديب خصومهم أنصار الدعوة ، الذين يهجرون البلدة وينضمون الى صفوف ابن قرملة ، فأسرع الشريف اليهم وأقام في بيشة أياماً ، واعتقل من أهل الدعوة جماعة ، ثم سار عنهم الى « الخرمة » ، وفيها أنصار للدعوة ، فلمـــا وصلها أمر بإحراقها فأشعِلت فيها النيران ..

ولكن الشريف فوجىء بمـا لم يكن في حسبانه ، وذلك ان سعود — وكان غازياً من الشمال — أمر جنوده الذين من منطقة بيشة وما حولها ، أن ينفصلوا عنه ويذهبوا الى ابن قرملة ويكونوا تحت إمرته ، كان الامام عبد العزيز — قبل

---

(١) ابن غنام .
(٢) ابن بشر .

ذلك – قد أرسل الى هادي بن قرملة أمير قحطان وربيع بن زيد، أمير الدواسر، والى قبائل من أخلاط البوادي كانوا مع جيش من الحضر (وأمرهم أن يجتمعوا ويكونوا في وجه الشريف ، فقوّى الله عزائمهم وساروا اليه حتى دهموه في منزله على الخرمة المذكورة ولم يقفوا دون خيامه ، فألقى الله الرعب في قلوب عساكر الشريف وانهزموا لا يلوي أحد على أحد وتركوا خيامهم ومحالهم وجميع أموالهم والقوم في ساقتهم يقتلون ويغنمون ... وكانت عدة القتلى ألف رجل ومئتين وعشرين رجلاً منهم الشريف مسعود بن يحيى بركات .. وغيره من الأكابر .

وأما النقد فمختلف فيه ، فمنهم من يقول ان في خزائن غالب خمسة عشر الف مشخص نهبت .. وغنموا جميع ما في المضرب من الأموال .. وأخذوا سلاحاً ..) وإبلاً وأمتعة ، وانصرف الشريف (وشريد قومه مكسوراً ، فلم تقم له بعد هذه الوقعة العظيمة قائمة ..) [1]

الشريف غالب يطلب الصلح فيجاب اليه :

في عام ١٢١٣ هـ . أرسل الشريف غالب ، بعد هزيمته الساحقة في الخرمة ، الى عبد العزيز يطلب منه المهادنة والمصالحة ، فأجابه الى ذلك .

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن شروط الصلح الذي انعقد بين عبد العزيز والشريف ، وأما المؤرخ التركي جودت باشا فيقول ان الاتفاق يتضمن :

١ – المسالمة ، ووقف الحرب بينهما .

٢ – السماح للوهابيين بالحج الى بيت الله الحرام .

٣ – تعيين حدود للممالك والقبائل التي تحت طاعة الشريف والتي تحت طاعة عبد العزيز . وكان ممن في طاعة الشريف : القبائل التي حول مكة والمدينة والطائف وبنو سعد وناصرة وبجيلة وغامد وزهران والمخو [2] وبارق ومحائل .

وبالجملة ، كان الصلح قائماً على ركنين أساسيين : حرية الحج لأهل نجد ،

---

(١) ابن بشر .

(٢) لعلها المخوات .

واحترام كل من الفريقين لسيادة الفريق الآخر في أرضه وعلى العشائر التابعة له.

حرية الحج :

أما الحج فقد ضمن الشريف حريته، ويقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢١٤، ان سعود حجّ ذلك العام وحجّ معه أهل نجد والجنوب والأحساء والبوادي، (وكانت حجة حافلة بالشوكة وجميع الخيل والأثقال والنساء، واعتمروا وقضوا حجتهم على أحسن الأحوال ولم ينلهم مكروه، ورجعوا سالمين). ويقول، في أخبار سنة ١٢١٥ هـ. ان سعود حجّ بالمسلمين للمرة الثانية (وكان أبوه عبدالعزيز على رأس الحجاج ولكنه مرض في بعض الطريق فرجع، فاحتفلوا احتفالاً أعظم من الاولى التي قبلها، وأجمل معه غالب أهل نجد ومَن تبعهم من البوادي وغيرهم بالنساء والأطفال، وقد اعتمروا وحجوا على أحسن حال، واجتمع سعود بغالب في مكة، وبذل سعود في مكة من الصدقات والعطاء شيئاً كثيراً.)

ويقول جودت باشا إن عدد الوهابيين الذين حجوا مع سعود في ذلك العام كان يزيد على عشرين ألفاً، وقد خشي الشريف أن يقع حدث في مكة، فبنى الأبراج والمتاريس حول شعابها وبثّ فيها رجالاً من العشائر الموالية له، هذا مع قيامه بحق الضيافة والتكريم والتوقير للأمير سعود وصحبه.

ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب احترس من الوهابيين قبل قدومهم، فأمر أولاً ببناء سور الطائف، ثم ببناء الأبراج في أطراف مكة، فشيّد مداخل مكة بالأبراج، وطلب كثيراً من القبائل من جميع الفجاج، وترس جميع المداخل والأبراج، فلم يدخل سعود بجيشه مكة قبل الوقوف، بل نزل بعرفة، وكان معه ما يزيد على عشرين ألفاً، وفي أيام « منى »، في اليوم الثاني عشر، وقعت خصومة بين عربان الشريف وقوم سعود آلت إلى قتال بالرصاص، فما زال الشريف يمنع عربانه حتى كفّ القتال، وتبادل سعود والشريف الهدايا...

احترام السيادة ثم الاخلال بها ونقض الصلح :

قلنـا إن الركن الثاني من أركان الصلح بين مكة والدرعية هو احترام كل منهما لسيادة الآخر ، وقـد بقي هـذا الشرط مرعياً حتى سنة ١٢١٧ هـ . ثم وقع الاخلال به ، فرجال الدرعية يقولون إن الشريف غالب هو الذي أخل به ، وأنصار الشريف يقولون إن رجال عبد العزيز هم الذين خالفوه .

يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢١٧ هـ . : (وفي هذه السنة انتقض الصلح بين الشريف غالب وبين عبد العزيز بن محمد بن سعود ، وفارق الشريف وزيره عثمان ابن عبد الرحمن المضايفي ، وخرج من مكة وترك الشريف ونابذه ، ووفد على عبد العزيز وبايعه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة) ... الخ .

لم يقل لنا ابن بشر كيف نقض الشريف الصلح ، وإنما اكتفى بتحميله تبعة النقض ، وهكذا فعل « الفقي » من بعده ، فقال إن الشريف غالب هو الذي نقض الصلح .. « فلم يرق ذلك في نظر المضايفي ، وزير غالب وزعيم عربان تربة وما جاورها ، فنبذه وخرج من مكة مغاضباً » .

والحق إن مجرد مغاضبة المضايفي للشريف ليس دليلا كافياً على سوء نيـة الشريف ،بل هناك من يتهم المضايفي بسوء النية ، وانه كان يحسد الشريف غالب ويطمع بمكانه ، ولذلك « شوّه سمعة الشريف عند عبد العزيز وحرضه عليه » .

لا نعرف من جهة مؤرخ نجـد أسباب نقض الصلح ، وأما مؤرخو الحجاز والمؤرخ التركي جودت باشا فيحملون تبعة النقض المضايفي بالدرجة الأولى ، ثم رؤساء عسير المنضمين حديثاً إلى الدعوة ،ولا شك ان «عقدة» الشريف غالب من الوهابيين.. وشدة خوفه من كل نجاح تصيبه الدعوة بين قبائل الحجاز وعسير قد عجلتا في نقض الصلح .

يقول ابن دحلان إن سبب نقض الصلح ان الأمير سعود كاتب شيخ محايل سعدي بن بشار وشيخ بارق أحمد بن زاهر ، فصارا يفسدان كثيراً من القبائل

حتى كان منها من الفساد ما حصل به انتقاض الصلح . ويقول « دي غوري » إن سبب نقض الصلح استيلاء الوهابيين على بلدة (حلى) .

وأكبر الظن ان الحوادث التي عكرت صفو العلاقات بين الأمير عبد العزيز والشريف غالب كاستيلاء الوهابيين على حلي وتسلط ابن شكبان على قبائل زهران ومهاجمة شيخ محائل للقنفذة لم تكن أموراً غير قابلة للحل والإصلاح ، ولكن الشريف غالب لم يحسن التصرف حيالها ، وكان من أكبر أغلاطه انه انتدب المضايفي لمفاوضة الدرعية ، وهو الذي يضمر له العداء .. ويقول ابن دحلان ان المضايفي ذهب مع عدد من الأشراف الى الدرعية ، يحملون رسائل من الشريف الى عبد العزيز ، فأحسن عبد العزيز استقبالهم (ولكن المضايفي .. شوّه سمعة الشريف عند عبد العزيز وحرّضه عليه وتعهد له بتسليمه مكة وطلب منه أن يوليه بلداناً سماها له ، لعل أبرزها الطائف .

ثم عاد المضايفي من الدرعية ، ولكنه لم يذهب الى الشريف غالب ليبلغه جواب الإمام عبد العزيز ، وإنما ذهب الى بلدته (العبيلاء) ، ونصب فيها بيرقاً ودعا الناس الى طاعته .